دلالة رموز الطبيعة عند جبران خليل جبران

جدي فاطمة الزهراء

جامعة جيلالي اليابس(سيدي بلعباس)

1) الطبيعة

إن طبيعة بشرى و ما حولها ، في نقائها و صفائها و ألوانها و أنغامها ، و عطورها و عنفها و كذا خصائص هذه القرية المحافظة من حيث بساطة العيش و التقاليد الدينية و الاقطاعية المتصلة اتصالا حميما بالحياة اليومية معقلا للموازنة ، و كان لخصائص المنطقة بعض التأثير انعكس في انتاج جبران الأدبي ،كالغابة و النهر و الجبل و الكنائس و الأديرة و ما كان ينبعث من الأصوات منها ، و كانت المدرسة الرهبانية "**دير مارسركيس**" و هي عبارة عن فجوة مشرفة على واد قاديشا حيث في هذه الغرفة ساكن جبران الطبيعة البكر ، و هي محفورة حفرا في قلبه فهو يقول " هناك سنعتزل العالم يا ميشا و سنحلم ما طاب لنا أن نحلم ، و سنكتب ما شئنا أن نكتب ....و سنعمل في الأرض فنحول اليابس منها أخضر ، و القاحل خصبا و ستباركنا الرياح و تفرح بنا الشمس و يحمل الينا الوادي أنفاسه الملهمة " [1]

إن جبران أشد الكتاب ، تحسسا بروعة الطبيعة المتجلية في الجبال و الحقول و في حياة الرعاة فقد كان اغترابه عن قريته سببا في جعل الطبيعة ، معينا سخيا يعب منه ثقافته الفطرية و تأثراته بالإضافة الى كونه خميرة وحيه ، فالذكريات التى يحملها عن مراتع الصبا ، هي في الواقع حمى الحنين المجسدة في أناشيد صافية تنطلق من أعماقه ، فلقد هام حبا بموطنه الصغير لبنان وظلت مفاتن الطبيعة التى نشأ فيها تملأ حواسه ، و ذكرياتها مخطوطة في خياله ، و في هذا نجده يقول " الأشياء التى يحبها الطفل تبقى مطبوعة بين أعشار قلبه حتى الشيخوخة و أجمل ما في هذه الحياة هو أن أرواحنا تبقى مرفوعة فوق الأماكن التى تمتعنا بها بشيء من اللذة " [2]

في بشرى فتح قلبه على الحب ، و عشق الحرية و الجمال في رحاب الطبيعة ، و إلى

هذا أشار مارون عبود في قوله عن جبران " إنه في تأليفه العربية لبناني محض ، بل اقليمي حتى في أسماء بعض أبطال قصصه و أماكنها ، و لا بد للراغب في فهم جبران فهما تاما من زيارة الاقليم الذي نشأ فيه " [3]

الطبيعة في رومانسية جبران ، طبيعة حسية و نفسية ، واقعية و مادية و خيالية و شعورية ، إذ كانت مركز الثقل في تفكيره ، و ظل موصولا بروحه الى طبيعته الأم و هو يحيا في دوامة العالم الجديد المليء بدخان المصانع و زحمة الناس ، فكل هذه المؤثرات المحيطة به أدت الى رد فعل جعلته ينمو بجدلية خفية في نفس جبران ، فكان من المعقول أن يتوق الى الطبيعة و الى البساطة و الهواء الطلق و سنفونية العطور و الأنعام و الألوان : " و أنا أيضا أذكر تلك البقعة الجميلة من شمال لبنان ، فما أغمضت عيني عن هذا المحيط إلا رأيت تلك الأدوية المملوءة سحرا و هيبة و لا صممت أذني عن ضجة هذا الاجتماع إلا سمعت خرير تلك السواقي و حفيف تلك الغصون "[4]

و الطبيعة هي نجية العاشقين ، تبتسم لنشوتهم و تقـــاسي آلامهم ، و منها انطلق جبران إلى الحقائق الكونية ، و جعلها أيضا موضوعا لنسج قصصـه و خواطره و كانت ملاذا يعكس حالة نفسية من حالاته ، فقد كان يلم في كل منهـا الطبيعة في أوصاف ذهولية رائعة ، فقد أيقظ الطبيعة التي ماتت في كثير من الكتب ، لينقلها الينا في أحلى صـــورة شعرية تكشف عن نقاب لطـيف يخفي روح الرؤى و أعماق الأخيلة .

و الطبيعة كما رأها جبران ، ليست اطارا خارجيا ينشط الانسان في نطاقه ، و ليست مجرد مرآة عاكسة لحالات نفسية ، بل هي كـــائن حي قائم بذاته و كيفما أطلق جبران خياله في جو الطبيعة رأى كل ما فيها يشع حياة ، فالبحر روح و الشمس قلب و للنرجس دمـــوع و للطير حنين فطبيعة بلاده فريدة من نوعها كونها " مستودع التاريخ المقدس " [5] : " كأنهـا أسرار نقلتها الأرض للسماء و أشجارها اللوز و التفاح قد اكتست بحلل بيضاء معطرة بانت بين المنازل كأنها حوريات بملابس ناصعة قد بعثت بهن الطبيعة عرائس " [6] .

و كأن الربيـــع روح إله تستأنس بأرواح الملـوك و الأنبياء الحائمة في الفضاء مترنمة بأناشيد سليمان مرددة مع أرز لبنان تذكـارات المجد القديم ، لبنان خليل محصورة في روحه الشرقية التواقة إلى الانغماس في حلم الطبيعة ، التي كـانت بسحرها و عواصفها و نسماتها خميرة طفولته ، هكذا ينطلق جبران من الانبهـــار الحسي بروعة الطبيعة التي كانت مسرحا لجميع شخصيات الأدبية

مصورا بذلك أروع اللوحات الجمالية ، فقد أحب الطبيعة بغضبها حين تعصف و تزلزل و تدمر المنازل على ساكنيها ، و تستمـــر أما حنونا و ينبوع الحب و السخاء و لما أرعبت الطبيعة الطفل هونت عليه الأرملة من هولها قائلة : " لا تجزع يا بني فالطبيعـــة تريد أن تعظ الانســان مظهرة عظمتها تجاه صغره ... فمن وراء الثلوج المتساقطة و الغيوم المتلبدة و الريـاح العاصفة روح قدس كلي عالم بما تحتـــاج اليه الحقول و الأكام ، فالطبيعة التي ابتسمت في الربيـــع و ضحكت في الصيف ، و تأوهت في الخريف تريد أن تبكي الآن ، و من دموعهـا الباردة تستقي الحيـاة الرابطة تحت أطباق الثري " [7]

الرموز

لقد كان جبران رومانسيا في كثير من كتاباته ، فأخذ يتعمق أفكاره عن الطبيعة لأنه وجد نفسه و صورها فيها ، و كانت غذاء روحه الذي تمثله في تجاربه الذاتية التي استقاها من عصره فأعاد صياغة ملاحظاته و أفكاره و تأملاته ، ليبدع أدبا فيه رقة و نداوة و أعمق ما يكون سحرا و أروع ما يكون صدقا و اخلاصا .

إن هذه المنطلقات الرومنطيقية ولـــدت عند جبران ميلا الى أسلوب الايحائي الذي يعتمد الرمز و نفورا من الأسلوب التحليلي الذي يعتمد بساطة الوضوح .

و سئل جبران مرة من طرف أحد ضيوف ماري هاسكل عن طراز الكتابة فقالت : إني أسمع في كلامك ما أراه في صورك يا مستر جبران ، و قد قلت إنك تكتب بلغتك العربيـة ، فهل طرازك في الكتابة مثل طرازك في التصوير ؟ و لماذا اخترت هذا الطراز ؟ [8]

يرد جبران " لعله اختارني و لم أختره...عندما بدأت بالتصوير لم أقل لنفسيي : هو ذا الطريق الكلاسيكية أو الحديثة أو الرمزية أو كثير سواها فاختر لك واحدة منها بل شعرت إلا و قلمي يرسم رموزا لما يجول في خاطري من خيالات و أفكار و عواطف يحسب البعض الفن في تقليد الطبيعة و الطبيعة أعظم من أن تقلد و مهما تسامى الفن لا يأتي بمعجزة من معجزاتها " [9] فالرمز الكلامي يكاد يشكل عنده وسيلة رئيسية للبوح فنيا عن أفكار فلسفية.

فاغتراب الفنان عن المجـاري العادية للحياة يدفعه الى تلمس الأشياء من بعيد ، و هذا ما يفسر لنا ميله إلى الإيحاء الرمزي ، و هذا أمر طبيعي يرى جميل جبر : " فقد هام منذ صباه بالديانات القديمة و أسرارهـا و بطقوسها و بالأساطير و الرموز " [10] ، فجذروه المشرقية كانت صدى يتردد في خيـاله فيقود فكره و قلمه في تيار الأسلوب الايحائي ، و نرى المؤلف عدنان الذهبي يقول أن "الرمزية عند جبران ليست نزوة عابرة كالتي عهدناها عند من سبقه من الأدبـاء و الشعراء بخاصة عند العرب منهـم ، في فنيتهم البعـيدة عن التمـذهب الغربي فلقد عهدناهـا عنـد هؤلاء في التشبيهات و الاستعارات الرمزية الطـارئة في الأسلوب هي عند جبران تمذهب روحي و فكري قد عاشه هذا الأديب الموهوب و بشر به في الأدب المعاصر " [11]

و يرى جمـيل جبر أن " المدرسة الرمزية التي نسبه إليها بعضهم اسنادا إلى مجازيه تعبيره أو ضبابيته فقد ظل بعيدا عنها لأنه شاعر القلب و الخيال ، يقدسهما و يسلطهما على العقل و يؤمن بالالهام " [12]

و كثير ما يلجأ الرمزيون الى الايقاع كغاية و لا يرون ضرورة في فهم الشعر ، فيكتفون بالإيحاء النغمي بينما جبران يلجأ الى الايقـاع كوسيلة تعبير متولد على صفاء المزاج و قوة مادة النور في النفس ، و ربما هذا ما أحسـه جبران ، من خلال مراقبته للعالم الخارجي في أدق تفاصيله و بقدر من الذكـاء الخارق استطاع أن يفهم أبعد المعاني لأدق الحوادث ، بمخيلة خصبة مثيرة للإعجاب تقفز في الوعي قفزا محركة بذلك طاقة مكبوتة من مشاعر الحنان و الحب و العطف .

و لا يخفي أن الرموز و الصور الدينية و الأساطير ينبع أهمها من شعور انساني عميق يستمر حيا في اللاوعي و هذا ما اكتشفـه **يونغ** أحد تلاميذ فرويد من خلال نظريته **اللاشعور الجمعي** و وجد أن الحيـاة العقلية تتكون من اللاوعي الفردي و اللاوعي الجماعي ، فاللاوعي الفردي هو أساسا محتويات كـانت في وقت من الأوقات شعورا ، لكنها اختفت بالكبت أو بالنسيان كحكايات الطفولة ، ففي أعماق كل انسـان أثار طفولية أو بدائية يرجع اليها في اضطرابه ليستعيد توازنه المفقود فيأتلف مع ذاته لكن الأهم في كل ذلك ، أن الرموز و الصور الدينية و الأساطير مشتركة بين البشر على اختلاف لغاتهم و أجناسهم و حضـاراتهم ، و يشكل مجموعها تراث ذهنيا خصبا يرتوي منه الدماغ البشري بفعل الوراثة ، و قد وجـد جبران ضالته في كل هـذا و راح يستصيغ جوهر ابداعـاته ليحرك صورا رامزا و معبرا عن ذاتيته العاطفة الفردية " و أتقن مخاطبة

اللاوعي بالوعي " [13] على حد قول المؤلف جميل جبر و طليعة هذه الرموز ، هي الشمس التى جاءت في الديانات الشرقيـــة أنها تعطي الحياة و تحيي الموتى و توجه الكون ، هي نور العالم نور السماء و الأرض ، و هي الهة العدالة و وليدة الحق ، طاردة الظلم و منسقة دورة الليل و النهار.

أما في معجم جبران ، فكان لها دلالات شتى ، فالشمس هي مصدر النور أي مصدر الحقيقة و العدل و الاشـــراق ، هي الطريق الى الحقيقة الكبرى ، الذات الالهـــية الأم العظيمة فهو يقول " إن ذاتكم الالهية كالشمس ، ذاتكم الالهية بحر عظيم " [14] أمـــا البحر هو اللانهـــاية هو الذات الكبرى فهو الأعظـــم يحتضن كل الجداول و جبران يقول في هذا : " وصـــل الجدول الى البحر و أتيح للأم العظيمة أن تضم ابنها الى صدرهـــا مرة ثانية " [15] و لكـــم تحرق جبران لأن يحول البحر الذي في أعماق نفسه الى ضباب كثيف ، الذي ينعقد قطرا ثم يسير جدولا ، " فالبحر طريق الحقيقة الأزلية تنطلـــق في السفينة التى تسيرها الريح نحو أفاق تتجاوز الأرض ، و هي تقود إلى الخلاص و عندما تهب هذه الريح بعنف تضطرب أشرعـــة السفينة ، فتأمر نبي أورفليس فيمضي معها لكنه لا يهبط الى العالم السفلي الى الفراغ الراعب " [16] و نجد قول جبران عن الريح : " هل موت الانسـان هو أكثر وقوفه عاريا في الريح و ذوبانه في حرارة الشمس ...إن الذات الخفية التى تمثل حقيقتكم تقطن فوق الجـــبال و تهيم مع الرياح إنها الجبار الذي يوجه مصير البشر و يبدد الضباب و يذهب بالزبد، لكن البحر و الشاطو فإنهما يظلان إلى الأبد " [17]

أما الضباب الذي يفارق الأرض عند بزوغ الفجر من غير أن يترك ســـوى قطرات صغيرة من الندى ، و يقول جبران في كتابـه النبي : " و قد كنت بينكم مثل هذا الضباب " [18] فالضباب رمز الوجود الخام في تحولاته المستمرة و هو السديم لبداية الأشياء لا نهايتها الحياة و جميع الكائنات. إنما تتصور أولا في الضباب و ليس في الـــبلور ، و من يدري فقد يكون البلور ضبابا مجمدا هو القوة التى تولد و تحجب المنظور و اللامنظور " و المطرة شيعت سفينة المصطـفى بنظرها حتى توارت في الضباب " [19]

و عمد جبران إلى رموز أخرى ، كالغاب و الناي اللذان لونا قصيدة المواكب و الأرقام و لاسيما أن الرقم **سبعة** كان له شـأن كبير في كتاباته فقد ذكر لماري هاسكل أن دلالته مقدسة فقد " جاء في التوراة أن الله خلق العـــالم في أسبوع ، و في القرآن الكريم سموات سبـــع و البوذي يعتقد أن البيضة الكونية تتألف في شقها الأعلى من سبع سماوات يحل في أعلاها الكائن المثالي " [20] على حد قول المؤلف جميل جبر ، و قد تمنى لو يحول اللغة كلها الى كلمات سبع و هي " أنت أنا ، خذ ، الله ، الحب ، الجمال ، الأرض " [21] و نجد رمـــوز أخرى مثـــل عشتروت و أدونيس و هي رموز ميثولوجية شـــــاعت في الشعر الرومنطيقي ، فقد ذكر في قصـــة الأجنحة المتكسرة **عشتروت** قائلا : " و الداخل الى هذا المعـــبد العجيب يرى على جدار الشرقي منه صورة فينقية الشواهد و البيانات محفورة في الصـــخر قد محت أصابع الدهر بعض خطوطها و لونت الفصول معالمها و هي تمثل عشتروت ربة الحب و الجمـــــال جالسة على عرش الفحم و من حولها سبع عذاري " [22]

إن الطبيعة قوة جبارة تكمن فيها قدرة الرب ، و استعان جبران رموزه و استعاراته منها ، فالطبيعة رمز للروح الكليـــة ، فنجده يقول : " أنا أحاول أن أجد ذاتي من خلال الطبيعة ،إن الفن بالنسبة لي أبعـــد من الأشياء التى نراها و نسمعها و الطبيعة مـــا

هي إلا جسد الله ، شكل الله و الله ما أنشده و ما أحب أن أتفهمه " [23] و هو يقول أيضـــا أن الفن أن نفهم الطبيعة لا أن نقلدها لأنها "محسوسة فما الحاجة الى تقليد الطبيعة و هي محسوســـة لكل ذي حس ؟ إنما الفن أن نتفهم الطبيعة و نؤدي معانيها للذين لا يفهمونها ، الفن أن نؤدي روح الشجرة لا نصورها جذعا و فروعا و أغصانا و أوراقا تشبه الشجرة ، الفن أن تأتي بضمير البحر لا أن نرســم أمواجا مزبدة أو مياها زرقاء هادئة ، الفن أن نرى في المألـــوف ما ليس مألوفا ، لذلك أبتعد في التصوير و في الكتابة عن كل مألوف لأتوصل الى ما فيه من معان و ألوان غير مألوفة " [24]

لقد طوف جبران قلمه ، في معارف شتى و أساطير مختلفة باختلاف الأجناس ليصل بنا في الأخير إلى مجموعـة قصص و خواطر شعرية و حوارية مسرحية اتسمت بالسحر و الجمال ، فقد عبر من خلالهـــا برمزية بارعة عن حالات نفسية مبهمة ولدها احساس المرهف المتطلع الى ما وراء الوجود ، و طعمهـا هاجس القبض على هلامية الحياة التي خيمت على نفسه ، فقد استطاع أن يتخطى بإخراجه الأدبي عالم البصر و اللمس و اليقين ليلج في طموحه الفكري الذي يرمز إلى اللاشكل في مفاهيمه التي و أن تصورنا أننا قبضنـا على حقيقتها فتطير و تنســـحب كأنها نظرة عابرة و فجائية تؤدي معني لحكاية رمزية أو أسطورة أو مقـــالة خطابية محورها العاطفة و الخيال و الرؤية الحدسية ليبدو أدبه فلسفـــة ترفض مقاييس الواقع الظاهر و تعتنق حيز اللامرئيات و لا منطق فتتلمس معضلات الانسانية بالبصيرة و الحدس .

المراجع

1- ميخائيل نعيمة : جبران خليل جبران : حياته، موته ، فنه ، و أدبه دار صادر للطباعة و النشر بيروت ط 5 1964 ص 211 2- د/ جميل جبر: جبران في عصره و أثاره الأدبية و الفنية بيروت لبنان ط1 حيزران-يوليو 1983 ص 64

3- المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران منشورات المكتبة العلمية الجديدة بيروت لبنان ج2 دار صادر 1961 ص 55/31

4- - المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران 2 ص 12

5- د/ جميل جبر : جبران في عصره : و أثاره الأدبية و الفنية ص 155

6- نفس المصدر ص 155

7- نفس المصدر ص 155

8- د/ جميل جبر : جبران في عصره و أثاره الأدبية و الفنية ص 155

9- ميخائيل نعيمة جبران خليل جبران : حياته –موته –أدبه – فنه ص 81/80

10- نفس المصدر ص 81/80

11- د/ جميل جبر : جبران في عصره و أثاره الأدبية و الفنية ص 138

12- عدنان الذهبي : الرمزية في أدب جبران خليل جبران و رسمه مجلة الأديب يناير 1951

13- د/ جميل جبر : جبران في عصره و أثاره الأدبية و الفنية ص 137

14- - نفس المصدر ص ص 138

15- د/ جميل جبر : جبران في عصره و أثاره الأدبية و الفنية ص 140

16- نفس المصدر ص 141

17- د/ جميل جبر : النبي ص 141

18- السابق ص 5

19- المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران كتاب النبي ص 62

20- نفس المصدر ص 62

21- - د/ جميل جبر : جبران في عصره و أثاره الأدبية و الفنية ص 143

22- مذكرات هاسكل حوار 23 (النبي الحبيب نقلها الى العربية الأب لورانس فارس دار الجديدة) الأهلية للنشر و التوزيع 1974

23 - المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران كتاب الأجنحة المتكسرة ص 78

24 – توفيق الصايغ : أضواء جديدة على جبران منشورات دار الشرقية للطباعة و النشر بيروت لبنان 1966 ب/ ط ص 216